سوف نحاول هنا، أن نستكشف المضامين الأساسية، في هذه الرواية، عبر هذا التشكيل البنائي بالذات.

هنالك مجموعة من الملاحظات، ذات فائدة في تحديد المضامين الإنفعالية، والنفسية، والايديولوجية في روايتنا هذه.

الملحوظة الأولى تتعلّق بالتكرار. أعني به تكرار الانماط الإنسانية، وتكرار المواقف.

لقد سبق وذكرنا العديد من الأمثلة على هذا: طارق يكرّر إبراهيم، وصال تكرّر مريم، النساء يفزن بوليد بالطريقة نفسها. الجميع يفتقد وليد على النحو نفسه.

الشخصيات، هنا، متشابهة، من حيث أن جوهر حياتها، واهتمامها هو وليد مسعود. قد تختلف التعبيرات عن هذا الجوهر، ولكنها تتماثل، إلى درجة فقدان التمايز، في الإطار العمومي. يشذ عن هذه القاعدة بعض الشخصيات. ولكنه الإستثناء الذي يؤكّد القاعدة. كلهم يعودون إلى طابور المعجبين، بعد أن يلعبوا أدوار الأبطال الشريرين لبعض الوقت. أي أنهم يلعبون دور المعجب بنائياً.

فلقد عوقب طارق، بواسطة مريم، لأنه أبدى ذلك الإعتراض الخجول، الذي سرعان ما تراجع عنه، على التحاق أخته الصغرى بحريم وليد مسعود. أما هشام، زوج مريم الصفّار، فقد كان له من الحماقات والسفاهات، ومن السماجة، ما يجعلنا نحمد الله أنها طلّقت زوجها، والتحقت بحريم وليد.

أما كاظم إسماعيل، فقد ذاق الأمرين على يد الأستاذ جبرا، كما عوّدنا أن يفعل مع كل الشيوعيين في رواياته.

إضافة إلى التكرار، نلاحظ افتقاد الموضوعية في تصوير الشخصيات. فهي تفقد ملامحها المميّزة وتتحوّل إلى مجرد تحقيق لرغبات وليد مسعود. ويبلغ ذلك حداً نجد فيه المحلّل النفسي طارق، قد تحوّل إلى طبيب ممارس، يستدعونه الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ليعالج مريضاً توفاه الله.

«حال دخولي منزلي استقبلتني زوجتي مضطربة منزعجة:

ــ أمريض آخر؟.

فقلت: مات. لماذا يستدعون الطبيب والرجل في نزعه الأخير، لست أدري».

وافتقاد الموضوعية في رسم الشخصيات، يبلغ حداً تقف فيه الحقيقة الموضوعية على رأسها. فالشيوعي مترف، إذا لمست يده عاملاً، يسرع لتطهيرها بالكولونيا، ويرتقي كالصاروخ في سلم وظائف الدولة. النساء كلهن فقدن عنصر الغيرة تماماً. فوصال تعلم، وكذلك مريم وجنان وحنان الخ...، إنها حين تغيب عنه يمارس الجنس مع أخريات. ولكنّهن، جميعاً، لا يكترثن. ثم يهجرهن تماماً إلى إمرأة أخرى، فيواصلن عشقهن وعبادتهن له.